

نشأة النقد الثقافي عند مالك بن نبي

The emergence of cultural criticism at Malik bin Nabi

د. بكوش جميلة¹

Dr. Bekkouche Djamilia

جامعة ابن خلدون - تيارت - الجزائر

مخبر الخطاب الحجاجي أصوله ومرجعياته وآفاقه في الجزائر

University of ibn khaldoun- Tiaret Algeria

djamilia1971@gmail.com

تاريخ النشر: 2020/06/02

تاريخ القبول: 2020/04/22

تاريخ الاستلام: 2019/03/13

الملخص:

إذا كان الدارسون العرب يرجعون بداية النقد الثقافي العربي للأستاذ عبد الله الغدامي منذ ما يقرب من عقدين؛ فإننا سنحاول في هذه الورقة البحثية الوقوف على حركة النقد الثقافي بالجزائر. بدءًا بالإرهاصات الأولى مع جهود "مالك بن نبي" الذي ارتكز فيها - وهو يتناول فلسفته الحضارية - على مشكلة الثقافة. وقد انطلق منها للوصول إلى مشكلة التخلّف الحضاري المزمّن الذي يعيشه العالم الإسلامي والبلاد العربيّة، محاولاً طرح حلول جذرية، متخطياً الظاهر من الظواهر إلى أغوارها المضمرة.

الكلمات المفتاحية: نقد، مشكلة الثقافة، حضارة، مالك بن نبي، تخلّف حضاري.

Abstract :

And if the Arab scholars refer back to the beginning of Arab cultural criticism to Professor Abdullah Al-Ghazhami, for nearly two decades. In this paper, we will try to identify the movement of cultural criticism in Algeria. Beginning with the first advances with the efforts of "Malik bin Nabi" in which he focused - and he deals with his cultural philosophy - on the problem of culture, where he proceeded from it to reach the problem of chronic cultural underdevelopment experienced by the Islamic world and the Arab countries, trying to offer radical solutions, bypassing the apparent from its phenomena to its depths Al-Mamdara, noting that custom limits the problem of culture to the issue of ideas, stressing that the problem is also in one of its aspects, but culture includes not only in its concept

ideas, but also includes things that are more general than that, concerning the way of life in a particular society on the one hand, and Concerning social behavior Some actions of the individual in that society on the other.

Key words: criticism, culture problem, civilization, Malik bin Nabi, civilization backwardness.

1- مقدمة:

غادر النقد ساحته التي شكّل فيها النصّ بمختلف أجناسه نسقاً من الأساليب التعبيرية والجمالية التي تجمع بين الإبداعية والبلاغية، الإقناعية والإمتاعية، إلى أدب الهامش والأنساق الخبيثة المضمرة، متجاوزاً بذلك أدبيّة النصّ إلى الطابوهات المسكوت عنها في المجتمع؛ بخلق نمط من الثقافة المعرفية، تحكمها صدمة الصورة بصريا وداليا، التي داهمت ذوق المتلقي في تبني كل ما هو شكلي، وغريب، ومخالف، ومغاير في أفكاره وأسلوب حياته.

وقد تنبّه مالك بن نبي إلى أنّ العُرف يقصر مشكلة الثقافة على قضية الأفكار، مؤكداً أنّ المشكلة هي كذلك في جانب من جوانبها، ولكن الثقافة لا تضم في مفهومها الأفكار فحسب، وإنما تضمّ أشياء أعم من ذلك كثيراً، تخص أسلوب الحياة في مجتمع معيّن من ناحية، كما تخصّ السلوك الاجتماعي الذي يطبع تصرّفات الفرد في ذلك المجتمع من ناحية أخرى.

2- تأسيس النقد الثقافي عند مالك بن نبي:

يعترف (مالك بن نبي) نفسه في مقدمة الطبعة الثانية من كتاب (مشكلة الثقافة) أنّ الأفكار التي يعرضها الكتاب لم تسبقها دراسة أخرى من دارس عربي؛ ذلك لأنّه تناولها من زاوية جديدة غير تلك التي ينطلق فيها عالم الاجتماع في الغرب أو في الشرق الأوروبي وهو يصف واقعاً اجتماعياً شاخصاً أمام عينيه في نظم بلاده، وفي فعاليّة السلوك حوله⁽¹⁾، إضافة إلى أنّ هذه الدراسة لم تتوخ منهج الدراسات الغربية، إلى جانب أنّ هذه الأفكار المعروضة في كتابه (مشكلة الثقافة) ليست في جوهرها إلا امتداداً وشرحاً تحليلياً، وتركيباً للأفكار التي جاءت في أحد فصول بواكير أعماله كتاب (شروط النهضة) الذي سبق كتاب (مشكلة الثقافة) إلى النشر بأكثر من ربع قرن⁽²⁾، ومن ثم فهو يرى أنّ كتابه بكر لا بالنسبة إلى العالم الإسلامي فحسب، بل في بلاد الغرب.⁽³⁾

هذا الاعتراف من الكتاب نفسه يؤكد أنه حاز قصب السبق في تناول موضوع الثقافة بكلّ نواحيها الإيديولوجية ومؤثراتها التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التي رأى أنّها تنتظم جميعاً تحت مظلة الأفكار، وهي المشكلة التي يعيشها مجتمع العالم الإسلامي والبلاد العربية، لذلك راح يبرز الجوانب الخبيثة أو كما سمّاها (مطبات الشر) التي تقصّي أغوارها ورأى أنّه يتعثّر أو يستحيل السير أمامها، وأنّ الإشارة إلى الجوانب الإيجابية الظاهرة لا يكفي وحده لتحقيقها في الميدان العملي، لأنّ ثمة وجه آخر خفيّ شكّل جانباً من هذه الثقافة أو ملمحاً من ملامح مشكلات العالم المتخلف لا بد أن ينتقده ويحيل إليه.

وإذا تباينت ردود النقاد العرب في بداية النقد الثقافي، فالواقع أنّ (مالك بن نبي) قد وضع معالم الطريق لهذا النقد الذي بدأ معه على مستوى الإجراء والتنظير والتطبيق أيضاً، يعوزه تحديد المصطلح، حيث يجد الدّارس لفكر الرجل كل الأدوات الإجرائية والمفاهيم الأساسية التي يستعين بها هذا النقد، بدءاً بمفهوم الثقافة، مروراً بالعوامل الثقافية التي تمثّلت عنده في مجموعة من العوالم نستطيع القول أنّها تشكّل في مجملها ما أصبح يعرف بالأنساق الثقافية المضمرة بالمفهوم التنظيري، وهو يرى "أنّ القيمة الثقافية لهذه العوامل المختلفة تخضع دائماً لصلتنا الشخصية بها"⁽⁴⁾، هذه الصلة التي تنعكس في سلوكنا الاجتماعي الذي يطبع تصرفاتنا ويتمثل في أسلوب الحياة في المجتمع.

3- "الأفكار" محور مشكلة الثقافة عند مالك بن نبي:

يرتكز الكاتب في نظريّته النقدية الثقافية على الأفكار بشكل أساسي وكبير، وهو يرى أنّ "موضوع ثقافة معيّنة يرجع إلى مشكلة الأفكار"⁽⁵⁾، حيث يؤكد أنّ للأفكار دورها الفعّال، لأنّ "تنظيم المجتمع له علاقة وظيفية بنظام الأفكار المنتشرة في ذلك المجتمع، فإذا ما تغيّر هذا النظام بطريقة أو بأخرى فإنّ جميع الخصائص الاجتماعية الأخرى تتعدّل في الاتجاه نفسه"⁽⁶⁾.

ومن هذا المنظور فإنّ الأفكار سلاح ذو حدين يحتمك إليها تقدم المجتمع أو تخلفه، لأنّها تحمل في طيّاتها بذور التّهضة والحياة والحركة أو التردّي والفوضى والخمود والركود، لذلك فإنّ (مالك بن نبي) يرى أنّ أهميّة الأفكار في حياة مجتمع معيّن تتجلّى في صورتين، فهي إمّا تؤثر بوصفها عوامل نفّوس بالحياة الاجتماعية، وإمّا أن تؤثر على عكس ذلك بوصفها عوامل ممرضة، تجعل النمو الاجتماعي

صعباً أو مستحيلاً⁽⁷⁾، وبالتالي نظاماً متطوراً من الأفكار ينتج لنا حلاً مناسباً لكل المشاكل الحيوية التي يعيشها المجتمع.

وقد ربط الكاتب أهمية (الأفكار) في المجتمع بمقاييس أخرى على رأسها (الأشياء)، من ذلك - مثلاً - النظر إلى الرجل الذي يعيش في بلد مُتخَلِّفٍ ورؤيته لتخلّفه بالنسبة إلى الرجل الذي يعيش في بلدٍ متقدّم، إذ لا يقيس ذلك التخلّف بمسافات جغرافية بل بمسافات ذات طبيعة أخرى هي (الأشياء) ممثلة في المدافع والطائرات والمصارف وغيرها من تلك الأشياء المادية التي تشكّل تطوّر الاقتصاد ونجاحه، مالك بن نبي يرى أنّ الاقتصاد لن يكون ناجحاً إلاّ إذا كانت الأفكار سليمة، لذلك لا بُدّ للبلاد العربيّة والإسلامية أن تولي اهتمامها لمشكلة أفكارها لتحلّ مشاكلها الأخرى، خاصّة أنّها تفتقر لأدوات القوّة المادية، الأمر الذي يجعلها تفتقد توازنها. ومن ثم فإنّ الكاتب يؤكّد أنّه إذا كان "موضوع الثقافة يرجع إلى مشكلة الأفكار فحسب، فإنّ ذلك كاف بوصفه مسوّغاً"⁽⁸⁾ يضعه بين يدي هذه الدراسة.

وهو يرى أنّ تناول هذه القضية، قضية الثقافة، لا يمكن تشريحها إلاّ بربطها بظروفها التاريخية والاجتماعيّة في حدود الزّمان والمكان، وربط هذه الملاحظات النظرية المتعلّقة بها بالمشكلات السياسيّة والاقتصاديّة... وهي كلّها قضايا أصبحت تميّز النّقد الثقافي وتحدّد مفهومه، يحلّلها ويقوم بالكشف عنها انطلاقاً من النّصوص التي يتناولها بالتحليل والدراسة.

4- مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي:

بدأ (مالك بن نبي) تحديده لمفهوم الثقافة تحديداً لغويّاً، ورأى أنّ المعاجم قديمها وحديثها لا تذكر كلمة (ثقافة) إلّا لمأماً.

ثم يعرض مفهوم (ثقّف) كما جاء في لسان العرب في المجلّد العاشر: "يقال ثقّف الشيء، وهو سرعة التعلّم"، ويقول ابن دريد: "ثقفت الشيء حذقته"، وفي حديث الهجرة: "هو غلام شاب لقن ثقّف" [رواه البخاري]، أي ذو فطنة وذكاء، والمراد أنّه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه.

والعلامة (فريد وجدي) يقول في (دائرة معارف القرن العشرين/ المجلد الثاني): "ثقّف يثقّف ثقافة: فطن وحذق، وثقّف العلم في أسرع مدّة أي: أسرع أخذه، وثقّفه يثقّفه ثقفاً: غلبه في الحذق، والثّقيف: الحاذق الفطن".

والمعاجم الحديثة تقول: "ثقّف ثقافة: صار حاذقًا خفيّفًا، وثقّف الكلام فهمه بسرعة"⁽⁹⁾ وهو يرى أنّ هذه النّصوص فيها التّشابه ما يدعوننا إلى أن نعدّها نسخًا مكرّرة نقل بعضها عن بعض.

وقد أشار ألا أثّر لكلمة (ثقافة) بوصفها مفهومًا وتقديرها ظاهرة اجتماعية^(*) في لغة (ابن خلدون) الذي يعدّ المرجع الأوّل لعلم الاجتماع العربي في العصر الوسيط، وإنّما رجع مالك بن نبي إلى ابن خلدون للبحث عن مفهوم الكلمة نظرًا لأنّه يرى أنّ (الثقافة) لها علاقة وطيدة بالمجتمع - مثلما سنرى - وعلى اعتبار أنّ ابن خلدون يعدّ رائد علم الاجتماع وفلسفة التاريخ، كما أشار أنّ الفعل (ثقّف) أصل لغوي يتّصل تاريخه بلغة ما قبل الإسلام، حتى لنراه قد ورد في بعض آيات القرآن الكريم من مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ﴾⁽¹⁰⁾

وبعد هذا العرض يؤكّد مالك بن نبي أنّ كلمة (ثقافة) في اللّغة العربية لم تكتسب بعد قوّة التّحديد الضرورية التي كانت لنظيرتها الأوروبية لتصبح علما على مفهوم معيّن، وهذا ما يفسّر اقترانها الدائم بكلمة (Culture) الأجنبية المشتقّة من الأصل اللاتيني (Cultivar)، بينما فكرة (ثقافة) فكرة حديثة جاءتنا من أوروبا، ومفهوم (ثقافة) يعدّ ثمرة من ثمار عصر النهضة، عندما شهدت أوروبا في القرن السادس عشر انبثاق مجموعة من الأعمال الأدبية الجليّة في الفن وفي الأدب وفي الفكر⁽¹¹⁾، وقد وجد ابن نبي تعليلًا لاستعمال كلمة (Culture) التي تعني (الزراعة) في أوروبا عامة وفرنسا خاصة، مشيرًا إلى أنّها استعيرت من واقع العمليات التي تستغلّ خيرات الأرض كالحرث والبذر والحصاد، وذلك له علاقة ودور هام في نفسية الإنسان الأوروبي وصياغة رموز حضارته، كما أنّها تشخّص وتصنّف واقعًا اجتماعيًا خلّف مفهومًا جديدًا هو مفهوم (الثقافة)، ومن ثمّ فإنّ (مفهوم الثقافة) ارتبط في الغرب بواقع اجتماعي مزدهر نتيجة ازدهار زراعته أو (حضارته الزراعية) الأمر الذي انعكس على نفسيّته.

5- مفهوم الثقافة وعلاقته بعلم الاجتماع:

ربط بن نبي تقدّم وتطوّر مفهوم كلمة (ثقافة) في القرن التاسع عشر بعلم الوقائع الاجتماعية الذي بدأ به (أوغست كونت) الذي يعدّ عند الأوروبيين أبا لعلم الاجتماع^(*)، حيث اتسعت حقول الدّراسة كعلم الإنسان وعلم الأجناس وعلم النّفس والاقتصاد السياسي التي تتلاقى أضواؤها جميعًا في الواقع الاجتماعي، ممّا سمح بتحديد مفهوم (الثقافة) أكثر من ذي قبل، حيث أصبح إحدى مشكلات

علم الاجتماع وتحليل الوقائع ما يجعل المفهوم السابق للثقافة (باعتبارها مجموعة ثمرات الفكر في ميادين الفن والفلسفة والعلم والقانون) لا يتفق مع طبيعة القرن التاسع عشر، وغير كاف في إقناع المنطق الجديد الذي يمتد ليشمل ما وراء ما أطلق عليه (الإنسانيات الإغريقية اللاتينية) وأن معناها يتجاوز ما أنتجته قرائح الفكر الكلاسيكي من أعمال أدبية ليضم في رحابته واقعاً اجتماعياً، وفي إطار مجال البحث العلمي تناول تأثير التوسع الاستعماري ذاته، ليصبح مفهوم (الثقافة) انطلاقاً من هذا الفكر، يضم مجالاً جغرافياً أوسع، ومعنى اجتماعياً أشمل، وصولاً إلى ثقافات المجتمعات البدائية^(*) مع دراسات (ليني بريل) بعيداً عن (النزاعات الفردية الأوروبية) التي كان مفهوم الثقافة حبيساً فيها باعتبار أن الثقافة - وقئذ- ميراث من موارث روما وأثينا.⁽¹²⁾

ولعل المتتبع لحركة ومسار الدراسات الثقافية التي قام عليها النقد الثقافي يدرك أن هذه الموضوعات التي وصل إليها (مالك بن نبي) أثناء تحليله لمفهوم الثقافة ومحاولة تحديدها هي نفسها اللبّات الأساسية التي قامت عليها الدراسات الثقافية وشكّلت مادة النقد الثقافي (علم الاجتماع/ الواقع الاجتماعي/ التوسع الاستعماري/ ثقافات المجتمعات البدائية/ علم الإنسان/ علم الأجناس/ علم النفس/ الاقتصاد السياسي...)، ليكون بذلك المنظر الأول للدراسات الثقافية وتتبع نشأتها في أوروبا منذ عصر النهضة في القرن السادس عشر وصولاً إلى القرن التاسع عشر، محيطاً بكل القضايا التي شملتها الثقافة، وليس ذلك فحسب بل يدرك كيف استطاع مالك بن نبي بتحليله الفذ وفكره العميق وفلسفته الصائبة أن يدرك تحوّل مفهوم الثقافة من مجال دراسة (الأعمال الأدبية الجليلة) أو ما أنتجه الفكر الكلاسيكي من أعمال أدبية في الفن والأدب والفكر في عصر النهضة إلى مجال أرحب وأشد ارتباطاً بالواقع الاجتماعي والاستعماري والمجتمعات البدائية... وغيرها، متخطياً بذلك النظر الانتقائي الذي ينظر إلى الأعمال الأدبية نظرة جليلة إلى أنساقها الثقافية المضمرة في تفاعلها مع بيئتها وتاريخها وواقعها، متبها بنظره الثاقب إلى أن (مفهوم الثقافة) ارتبط في القرن التاسع عشر - باعتباره قرن التشريح والتحليل الكيميائي - بتحليل الوقائع ومعرفة بنائها وأجزائها وعناصر تركيبها الأولية باستخدام التشريح والتحليل، لأن دراسة هذه الوقائع في حجرة الدراسة أو في آثار التاريخ لم تعد تفي بالغرض ولا تتفق مع طبيعة الفكر في هذا القرن.

هذا التفكير المنهجي الذي عرض به بن نبي أفكاره وهو يحاول تحديد مفهوم الثقافة جاء سابقاً عصر (النقد الثقافي) بسنوات عديدة على مستوى

الإجراء والتنظير، يجعلنا نؤكد ما اعترف به هو نفسه في بداية كتابه (مشكلة الثقافة) من أنه تقدّم على كثير من الدارسين المعاصرين للنقد الثقافي إن على مستوى مفهوم الثقافة أو دراستها أو نقدها.

6- مجالات الثقافة ومدارسها:

يؤكد (مالك بن نبي) - في البدء - أنه اختلفت تعاريف الثقافة باختلاف الزاوية التي ينظر منها إلى الموضوع، وهو اختلاف ينشأ بين آراء المدارس المختلفة، وقد ردّها مالك إلى مدرستين⁽¹³⁾: المدرسة الغربية: التي ظلّت وفيّة لتقاليد عصر النهضة، وهي ترى عمومًا الثقافة ثمرة الفكر، أي ثمرة الإنسان، هذه النظرة تقابلها المدرسة الماركسية: التي ترى أنّ الثقافة في جوهرها ثمرة المجتمع ويخلص بن نبي إلى أنّ (الفكر والمجتمع) يمثلان الإطارين المألوفين اللذين توضع فيهما المشكلات الاجتماعية في عمومها⁽¹⁴⁾، حيث عرض في هذا الإطار - رأي الأمريكيين - باعتبار أنّ الأمريكيين هم الذين سيطروا على الاتجاهات الثقافية في الغرب - (وليام أوجبرن) و(رالف لنتون) هذا الأخير الذي يرى "أنّ الثقافة (كلّ) تتداخل أجزاءه تداخلًا وثيقًا"⁽¹⁵⁾ فيه عناصر مختلفة هي التي تكوّن (الكلّ). ففي المستوى الأوّل يوجد مجال العموميات باعتبارها الأرض التي تمتدّ فيها جذور الحياة الثقافية للمجتمع، وذلك كالدين واللغة والتقاليد، وهي التي تعدّ المنوال الأساسي الذي يحدّد نوع العقلية الخاصّة بالنموذج الاجتماعي، وهو نموذج شائع في صور جميع الأفراد المنتمين لذلك المجتمع يطبع حياتهم بسلوك اجتماعي معيّن.

وهذا السلوك العام هو المقياس الذي يكشف عن المواقف الشاذة والاضطرابات وألوان الفساد لدى الشّواذ، وهذا ما تناولته الدراسات الثقافية في موضوعاتها - كالمثلية الجنسية مثلاً-؛ أمّا المستوى الثاني الذي ذهب إليه (لنتون) هو مستوى الأفكار الخاصة الناتجة عن التخصص المهنيّ، والتي على أساسها تكون التفرقة بين مختلف الطبقات الاجتماعية، كالتعارض الذي أصبح يعرف في ثقافة النخبة [الثقافة العليا] مع الثقافة الخاصة بعامّة الشعب في النقد الثقافي.

وقد أشار مالك بن نبي أنّ حركة ناتجة عن الأفكار الجديدة وعن التنظيم الصّناعي وعن النظريات المستحدثة والمخترعات والمكتشفات في الميدان السياسي والاجتماعي والاقتصادي... تسهم في تطوّر ثقافة مجتمع معيّن وفي نموّ موارثه التاريخيّة، وهذا هو القسم الثالث الذي يحوط المستويين السابقين ويؤثر فيهما تأثيرًا ينسب إليه ما يطرأ عليهما من تغيير أو تعديل، ومالك بن نبي يقرّر (رالف لنتون)

على ما ذهب إليه في تحليله⁽¹⁶⁾ والذي يحدّد نصيب الفكر في الواقع الاجتماعي بنسبة هذا الواقع إلى الأفكار وهي على مستويين (عامة وخاصة)، فتطور الثقافة وكلّ تغيير يصيبها مرهون بالأفكار الجديدة، وهذا ما أملاه العقل الكلاسيكي على (رالف لنتون)، أمّا (وليام أوجبرن) فإنّه يفرّق في الثقافة في مجالين:

الثقافة المادية: وهي التي تشمل الجانب المادي من الثقافة، أي مجموع الأشياء وأدوات العمل والثمرات التي تخلقها، والجانب الاجتماعي: كالعقائد والتقاليد والعادات والأفكار واللغة والتعليم، وهذا الجانب الاجتماعي هو الذي ينعكس في سلوك الأفراد⁽¹⁷⁾، وبالتالي فإنّ (أوجبرن) يرى أنّ تغيير الثقافة ممكن وضروري يبدأ في مجال الأشياء والأدوات ثمّ يمتدّ تأثيره كيما يعدّل الجانب الاجتماعي، يصل مالك بن نبي إلى نتيجة بعد هذا العرض، هي أنّ "القوّة المغيرة كامنة في الأشياء لأنّها تقبل التغيّر بأسرع ممّا تقبله الأفكار" وهذا في رأي (وليام أوجبرن)، الذي انفصل به عن الرأي الكلاسيكي، كما يقصيه عن التفكير الأوروبي، حاملاً معه طابع العالم الأمريكي، وهو تعريف يركّز على عالم (الأشياء) إذ إنّ الشيء لديه هو الذي يخلق الفكرة، وبناء عليه يكفي أن تتصوّر زوال (الأشياء) حتى تنهار الثقافة⁽¹⁸⁾. يعارض مالك بن نبي هذا الرأي، ويقدم لنا مثالا عن ذلك ما حدث في تاريخ ألمانيا، كيف شهدت الانهيار الكامل (لعالم أشياءها)، واستطاعت باحتفاظها (بعالم أفكارها) ان تبني كيانها من جديد.

وطالما أنّ (مالك بن نبي) انطلق من مشكلة تخلف العالم الإسلامي والبلاد العربيّة، قرّر أنّه "من المخاطرة أن نقتبس حلاًّ أمريكياً أو ماركسياً، كيما نطبقه على أية مشكلة تواجهنا في العالم العربي والإسلامي، لأننا هنا أمام مجتمعات تختلف أعمارها وتختلف اتجاهاتها وأهدافها".⁽¹⁹⁾

ذلك لأنّ "مفهوم الثقافة" يتصل في فكر عالم الاجتماع الأمريكي أو في فكر الكاتب الماركسي في الاتجاه نفسه ألا وهو فهم "واقع اجتماعي معين موجود بالفعل في نطاق تاريخي معين، أو موجود في حيّز القوّة في نطاق فكري معين أيضاً"⁽²⁰⁾، لذلك فإنّ الأمر يختلف مع واقع اجتماعي معين لم يوجد بعد في العالم العربي الإسلامي - في رأي مالك بن نبي - لذلك لا يمكن أن نستورد أو نطبق هذا الحل الذي يجعل من عالم الأشياء هيكل البناء الثقافي، لأنّ هذا العالم (العربي الإسلامي) لم يمتلك بعد (عالم الأشياء) الذي رأى الكاتب أنّه يمثّل وجهها من وجوه الثقافة - كما رأينا - لأنّ المشكلة تكمن أساساً في خلق واقع اجتماعي⁽²¹⁾، ولأنّ التعريف الأمريكي للنّظري للثقافة مرهون بالظروف العامة الناتجة عن الحضارة

الغربية، والتعريف الماركسي يُعرفها انطلاقاً من ايديولوجيته الماركسية، يجد مالك بن نبي نفسه حائراً أمام المنهج الذي يستخدمه في "تعريف الثقافة" أمام هذه الحالة المعقّدة لوضع العالم الإسلامي والبلاد العربية، ذلك أنّ "الثقافة (فكرة) ذات وجوه كثيرة ينبغي أن نطبّق في تعريفها منهج الشيء المعقّد الذي لا يمكن أن يدرك في صورة واحدة"⁽²²⁾ ومنهج الشيء المعقّد يقصد به متعدد الوجوه، وهي ميزة الثقافة، فهي صورة مركّبة معقّدة متعددة الأوجه لا تدرك بمجموعة من الأفكار، أو مجموعة من الأفكار والأشياء على الطريقة الأمريكية كما لا يكفي أن تكون انعكاساً للمجتمع على الطريقة الماركسية.

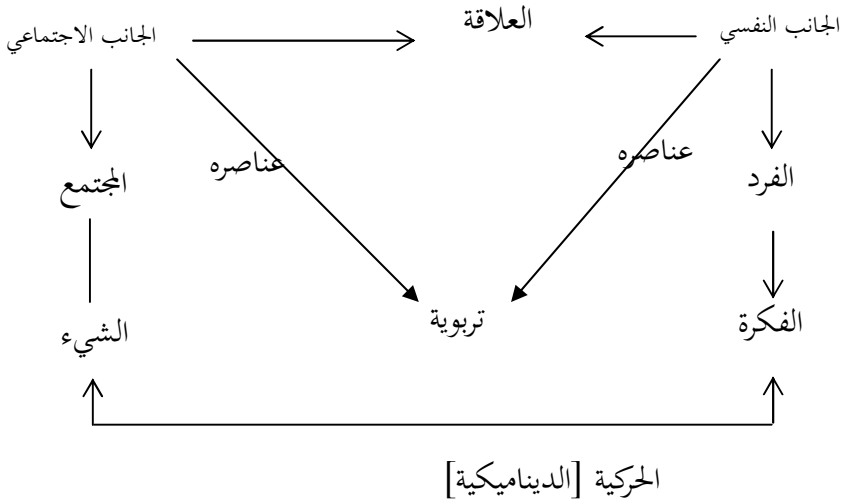
7- الثقافة بين موقف الفرد والحياة الاجتماعية:

يحاول الكاتب أن يعطي تعريفاً للثقافة من الزاوية العربية بعد مناقشته المستفيضة لتعريف وتحديد مفهوم الثقافة من الزاوية الغربية والتي أرجعها تحديداً إلى واقع (الأفكار) و(الأشياء) أو (انعكاساً للمجتمع) كما يحاول أن يستلهم هذا التعريف العربي للثقافة من واقعها الفكري والمادي والاجتماعي، جامعاً في تعريفه بين الجانب النفسي الفردي والجانب الاجتماعي، حيث لاحظ انعدام الفاعلية التي ظهرت في مظهر مزدوج هو: المظهر النفسي الفردي والمظهر الاجتماعي الجماعي؛ التي حصرها أو حدّدها في طريقة سلوك الفرد وتصرفه أمام مشكلات الحياة الاجتماعية، ذلك أنّ الفاعلية الاجتماعية في منظور مالك بن نبي "تعتمد بصفة عامّة على أسلوب الحياة في مجتمع معيّن، وعلى السلوك الذي ينتهجه الفرد كيما ينسجم مع هذا الأسلوب"⁽²³⁾، لذلك رأى أنّ مواجهة مشكلة الثقافة تعني ضمناً مواجهة مشكلة أسلوب الحياة ومشكلة السلوك الذي ينسجم معها. و(أسلوب الحياة) هو ما لم يجده مالك بن نبي في التعريفين الأمريكي والماركسي، وهذا يفسّر أيضاً تعدّد وجوه الثقافة الذي قال بها قبل هذا، هذا التعدّد الذي لا يتوافق مع تعريفها على أنّها (شيء) "بل على أنّها علاقة متبادلة، هي العلاقة التي تحدّد السلوك الاجتماعي لدى الفرد بأسلوب الحياة في المجتمع، كما تحدّد أسلوب الحياة بسلوك الفرد"⁽²⁴⁾، فهذه العلاقة المتبادلة تقوم على عناصر أساسية: نفسية واجتماعية، تتبادل العلاقات لتتحد في وظيفة محدّدة، أحد عضويها الفرد والثاني المجتمع، لذلك فإنّ الفروق بين تفسيرات الثقافة ترجع في جوهرها إلى هذا التبادل فبعض الناس يقدّم الجانب النفسي ومن ثم الفردي، معتبرين الثقافة قضية الإنسان،

وآخرون يقدّمون الجانب الاجتماعي ذاهبين إلى أنّ الثقافة (قضية المجتمع)، إذ هي تمثّل في نظرهم صورة اشتراكية بالمعنى التكويني للكلمة.

يخلص الكاتب بعد هذا التحليل إلى أنّ الثقافة تقوم على ثنائية (الفكرة والشيء) و(الفرد والمجتمع) و(الجانب النفسي والجانب الاجتماعي)، وهو لا ينكر دور الشيء في خلق الثقافة، ولكن يؤكّد أنّه لا يمكن بحال أن تُخضع له الفكرة، بل ينبغي أن نعترف لها بأسبقية معيّنة في هذا المجال. (25)

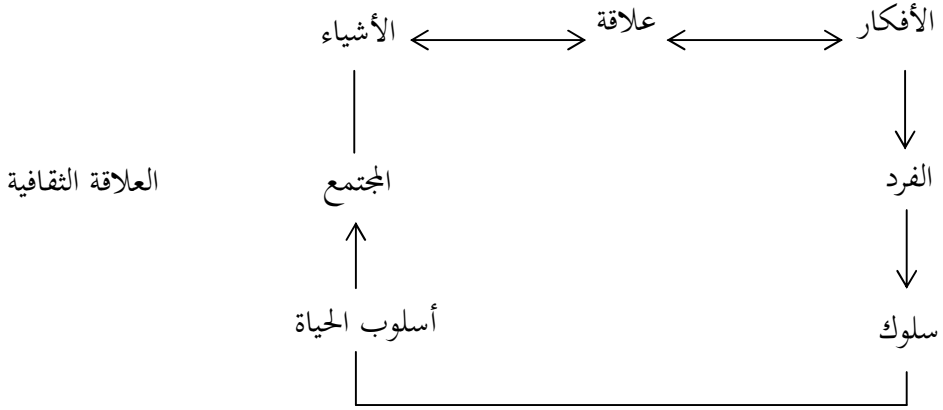
ولنا أن نتمثّل مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي في الرسم البياني التالي:



صورة الثقافة وعلائقها

هذا الرسم البياني يوضّح صورة الثقافة وعلائقها، ودور (الفكرة) في بعث حركة ديناميكية في (الشيء) وبالتالي نموّ ثقافة معيّنة وحركتها، «وفاعلية الفكرة رهن شروط نفسية واجتماعية تتنوّع بتنوّع الزمان والمكان» (26)، وبهذا المفهوم فإنّ الفرد تتنازعه علاقتان الأفكار والأشياء، فتنصهران في نفسه لتجسدان في سلوكه الذي ينعكس بدوره على أسلوب الحياة في المجتمع في حركة متحركة.

ومن ثم فالقيمة الثقافية للأفكار والأشياء تقوم على طبيعة علاقتها بالفرد، أي صلة الفرد بعالم الأفكار والأشياء، هذه الصلة التي تجسّد (العلاقة المتبادلة) بين سلوك الفرد وأسلوب الحياة في مجتمع معين، فهي الجانب العضوي من هذه العلاقة، والرسم البياني يجسّد ويشرح هذه العلاقة.



وعلى ضوء هذين الرسمين يتبين لنا أنّ "الثقافة هي الجو المشتمل على أشياء ظاهرة، مثل الأوزان والألحان والحركات وعلى أشياء باطنة كالأذواق والعادات والتقاليد بمعنى أنّها الجو العام الذي يطبع أسلوب الحياة في مجتمع معيّن وسلوك الفرد فيه بطابع خاص، يختلف عن الطابع الذي نجد في حياة مجتمع آخر" (27) كما يتبيّن لنا مفهوم بن نبي للثقافة وطبيعتها باعتبار أنّ الثقافة هي التعبير الحسيّ عن علاقة هذا الفرد بهذا العالم أي بالجمال الروحي الذي ينمّي فيه وجوده النفسي، فإذا ما فقد صلته بمجاليه الروحي أو مجاليه الثقافي فإنّه يموت موتاً مادياً وموتاً ثقافياً، الثقافة هي نتيجة هذا الاتصال بذلك المناخ، وإذا ما رددناها إلى مستوى اجتماعي فهي حياة المجتمع التي من دونها يصبح مجتمعا ميتاً (28)، وهذا ما يفسّر لنا العلاقة المتبادلة التي تكمن فيها الثقافة بين الجانب النفسي والجانب الاجتماعي، وهي علاقة ينعكس فيها أسلوب الحياة من ناحية وسلوك الفرد من ناحية أخرى.

وللتأكيد على هذه العلاقة التي ينعكس فيها أسلوب الحياة وأسلوب الفرد، وكنوع من النقد الثقافي أو التطبيق الثقافي الذي مارسه الكاتب، أورد لنا (نسقا ثقافيا) يعكس لنا ردّة فعلين مختلفين أمام مشهد واحد، وهو مشهد من مسرحية (عطيل) لشكسبير [حينما قتل البطل صاحبه (ديدمونا) وانتحر] كان قد شاهد مالك بن نبي هذا المقطع المسرحي في إحدى دور السينما في إحدى العواصم العربية، كما شاهد تأثيرها في أوروبا، حيث رأى الأوروبي المشهد من جانب (جمالي) فهو يرى نهاية مخلوقين جميلين؛ يبلغ معه انفعال المتفرّج الأوروبي ذروته، بينما يظلّ

المتفرّج المسلم هادئاً لأنّ شعوره يصدر من جانب (أخلاقي) إذ يرى قاتلاً ومنتحرًا، وهذا يؤكّد أنّ هذا السلوك نجم عن (ذاتية) الفرد التي تشكّل الوجه الحقيقي للثقافة. وبعد هذا التطبيق الثقافي الذي اقتبسه من الواقع، ومن مجتمعين مختلفين، يؤكد الكاتب أنّ (مقاييسنا الذاتية) هي التي تحدّد (سلوكنا الاجتماعي) وتحدّد في الوقت ذاته (موقفنا) إزاء المشكلات التي تعترضنا، كما تكون سببا في تحديد انتمائنا إلى نمط ثقافة معيّنة.

وبالتالي فإنّ "ذاتيتنا تؤدي دوراً رئيسياً في تحديد الثقافة وفي رسم خصائصها"⁽²⁹⁾، وأساس الذاتية - في رأي مالك بن نبي - لا يقتصر على الأشخاص والأفكار التي تشكّل الجانب الروحي، بل يمتد إلى الطبيعة مجسّدة في ألوانها وأصواتها وروائحها وحركاتها وظلالها وأضوائها وأشكالها وصورها، وهي عناصر طبيعية تنسكب في نفسية الإنسان في صورة عناصر ثقافية تسهم في بناء الفرد ووجوده الأخلاقي، تنعكس إلى أفكار عملية في تنوّع أزياء، وفي صناعة، وفي موسيقى، وفي رسم، وفي صيغ فنيّة مختلفة "وهذا كلّه لبُّ الثقافة ودمها وروحها"⁽³⁰⁾.

8- العوامل الثقافية عند مالك بن نبي:

على ضوء هذا التحليل المستفيض حدّد الكاتب العوامل الثقافية التي رأى أنّ لها دوراً بالغاً في تحديد ثقافة معيّنة هي: عالم الأشخاص، وعالم الأفكار، وعالم الأشياء، وعالم العناصر والظواهر الطبيعية.

وفي تركيبه لعناصر الثقافة ارتأى تركيبها تركيباً نفسياً لأنّه يفيد في فهم واقع اجتماعي معيّن، وفي إدراك معالمه النفسية والاجتماعية⁽³¹⁾، ورأى أنّه إذا أردنا أن نستحدث تركيب العناصر الثقافية، ينبغي أولاً أن يتحقق شرط جوهري، هو أن نخلق وأن نوثّق الصّلة الضرورية بين الفرد وبين العوامل الأربعة⁽³²⁾، فعالم الأشخاص له حق التقدّم والسبق لأنّه يمثّل الرّصيد الثقافي الذي يزوّد الفرد منذ ولادته بالمقاييس الذاتية التي تحدّد سلوكه وتوكّد انتسابه إلى ثقافة معيّنة، فهو يعدّ الشرط الأوّل العام لتحقيق (مشروع ثقافة) الذي يقوم أساساً على (تركيب) و(تأليف) لعالم الأشخاص، وهو تأليف يحدث طبقاً لمنهج تربوي يأخذ صورة فلسفية أخلاقية، كما لا يمكن أن يكون هذا العالم ذا نشاط اجتماعي فعّال؛ إلّا إذا نظم وتحوّل إلى (تركيب)؛ لأنّ انعزال الفرد لا يمكن أن يساعد في استقبال الثقافة أو أن يرسل إشعاعها؛ فالانعزال لا يسمح للأفكار والأشياء في المجال الاجتماعي أن تتحوّل إلى

عناصر ثقافية إلا إذا تألفت أجزاؤها فأصبحت (تركيبا)؛ كما لا يمكن أن تتجمع الألوان والأصوات والروائح والحركات والأضواء والظلال... في المجال الطبيعي وأن تمثلها ذاتيتنا إلا إذا اتخذت صورة (تركيب)⁽³³⁾، فأصبحت مجموعة من الألوان وطائفة من الأصوات وطائفة من الروائح، وكتلة من الحركات وحزمة من الأضواء والظلال هذه التراكيب الجزئية مستمدة من الطبيعة، ثم يأتي دور ذاتيتنا بعد ذلك، حين تحوّلها إلى (تركيب) أكثر تعقيداً كالرسم والموسيقى... ومن مجموع هذه التراكيب الجزئية يتألف تركيب عام هو الثقافة⁽³⁴⁾، ويجد مالك بن نبي نفسه هنا أمام إشكالية الثقافة باعتبارها منهجاً تربوياً لتحقيقه قائماً على فلسفة أخلاقية، لأنّ هذه العناصر التي تحلّت في ذاتيتنا، أسهمت في بناء حياتنا الفردية، وفي بناء المجتمع باعتبارها مؤثرات في سلوكنا لذلك نجد جميع العناصر الثقافية التي ترجع إلى عالم الأشخاص في فصل خاص أطلق عليه (الفلسفة الأخلاقية) باعتبار (الأخلاق) التركيب التربوي لكلّ هذه العناصر، ولذلك كانت فصلاً جوهرياً من فصول الثقافة⁽³⁵⁾، فقد يكون لعنصر من عناصر الطبيعة - كصوت مثلاً - خاصة مزدوجة، فنعامله باعتبارين: شكلاً أو حدثاً، فهو من حيث كونه شكلاً ينتمي إلى الجمال أو إلى (الفلسفة الجمالية) ولكنه بوصفه حدثاً يعدّ ظاهرة يتولّى دراستها علم خاص هو علم الأصوات، وهو في الحالتين ينتمي إلى الثقافة⁽³⁶⁾، ولذلك يعدّ (الجمال) تركيباً لطائفة جديدة من العناصر الثقافية، فإذا حدّد (العنصر الأخلاقي) شكل (السلوك) فإنّ (العنصر الجمالي) يحدّد (أسلوب الحياة في المجتمع).

إضافة إلى العنصرين (الأخلاقي) و(الجمالي)، يرى مالك أنّ (أسلوب الحياة) لا يحدّد بهذه العناصر الثقافية (السakنة) فحسب، عناصر الألوان والأصوات والأشكال وغيرها بل يشمل العناصر الثقافية (المتحرّكة) التي تحدّد فاعلية المجتمع، وهنا يستدعي (المنطق العملي) الذي يقوم أساساً على (عالم الأشياء) الناتج عن أسلوب حياة المجتمع وفاعليته، وهو عالم ناتج عن عوامل فنيّة صناعية مختلفة.

هذه العناصر مركّبة [الدستور الأخلاقي - الذوق الجمالي - المنطق العملي - الصناعة] تعدّ العناصر الجوهرية التي رأى الكاتب أنّها ضرورية تماماً للثقافة⁽³⁷⁾.

وبعد هذا التحليل لعناصر الثقافة خلص إلى أنّ "الثقافة هي التركيب العام لتراكيب جزئية أربعة هي: الأخلاق، والجمال، والمنطق العملي، والصناعة"⁽³⁸⁾، كما أنّ هذا التفصيل يعزّز قوله أنّ الثقافة "علاقة عضوية بين سلوك الفرد وأسلوب الحياة في المجتمع"⁽³⁹⁾. ثم يعطي تعريفاً آخر للثقافة يصفه بأنّه شامل، وذلك بعدما انطلق من مناقشة الغرب في تعريفه للثقافة بأنّها (فلسفة الإنسان) باعتبارها تراث

(الإنسانيات) الإغريقية اللاتينية، وتعريفها في البلاد الاشتراكية بأنها (فلسفة المجتمع) حيث يطبع ماركس كل القيم، محاولاً الربط بين الثقافة والحضارة، حيث تصبح الثقافة نظرية في السلوك، أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة، فالثقافة بصورة عملية هي: "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه"⁽⁴⁰⁾.

ومن ثم فإنّ الواقع العربي الإسلامي - الذي انطلق الكاتب من زاويته - يعدّ أساساً ثقافياً لا يمكن إعادة بناء حضارتنا على سواه⁽⁴¹⁾، وهذا ما أشرنا إليه من قبل أنّ مالك بن نبي حدّر من خطورة استيراد حلول أمريكية أو ماركسية لتطبيقها على عالمنا العربي الإسلامي لأنّه ستواجهنا مشكلة اختلاف الاتجاهات والأهداف.

9- النقد الثقافي عند "مالك بن نبي":

لعلّه من المفيد أن نشير هنا إلى أنّ من رواد الدراسات الثقافية الغربية من رأى أنّ الثقافة هي كيان واحد لا يتجزأ، وأسلوب حياة كامل من الناحية المادية، والفكرية، والروحية، وهو الأمر الذي ركّز عليه مالك بن نبي حين جمع بين (الأفكار) و(الأشياء) و(السلوك الأخلاقي) في تحديده لمفهوم الثقافة، إضافة إلى أنّ هؤلاء الرواد قد تتبّعوا مراحل تطوّر الثقافة من خلال جوانبها التاريخية المتعدّدة وصولاً إلى شكلها الكامل، كما اهتموا أيضاً بظهور الثقافة الإنسانية العامّة في مجتمعات معيّنة⁽⁴²⁾، وهذا أيضاً ما ارتكز عليه مالك بن نبي حينما راح يحلّل (الذات الإنسانية) انطلاقاً من نفسية المستعمر والمستعمر، ويبيّن أثر الاستعمار على الشعوب (المستعمرة) وأفراد (المستعمر) وامتداد هذا الأثر إلى ما بعد الاستعمار. وهذا ما سنراه في النقد الثقافي التطبيقي الموالي:

الاستعمار وما بعد الاستعمار/ الثقافة في اتجاه العالمية:

في كلمة وجهها إلى اللجنة التحضيرية لمؤتمر الكتاب الإفريقيين الذي انعقد بروما عن (الثقافة الإفريقية) ركّز مالك بن نبي في تأملاته على العناصر النظرية المشكّلة للثقافة - التي أشرنا إليها آنفاً في تحليله لمشكلة الثقافة - حيث رأى أنّ المثقف المسلم ملزم بأن ينظر إلى الأشياء من زاويتها الإنسانية الرّجبة حتّى يدرك دوره الخاص ودور ثقافته.

ورأى أنّ الأمر لا يتوقف على ظروف مادية بل إنّه يقوم على شروط (أخلاقية)، يقوم على (الأفكار) قبل أن يتمّ في نطاق (الأشياء)، وهنا قال قولته: "وسنظل نكرر ونلح في تكرارنا أنّ أزمة العالم الإسلامي منذ زمن طويل لم تكن أزمة في الوسائل، وإنّما في الأفكار، وما لم يدرك هذا العالم تلك الحقيقة إدراكًا واضحًا، فسيظل داء الشبهة العربية الإسلامية عضالاً، بسبب تخلفها عن ركب العالم المتقدّم"⁽⁴³⁾، ومن ثمّ فإنّ نوع الثقافة يتجدد في شعب تبعًا لحتمية منبعثة من نفسه، كما رأى الكاتب أنّه علينا أن نضع نصب أعيننا [مزاج الثقافة ورقعتها]، فالمزاج الإفريقي لا يحمل أية امبراطورية كالتّي عرفناها عند الرومان، بمعنى أنّ الشعب الإفريقي ليست لديه أية نوايا استعمارية أو توسعية، وأمّا [الرقعة] فإنّه رغم أنّ أرض المولد تمدّ الإنسان بالبواعث الحقيقية لمواقفه العميقة، غير أنّ الضمير الإنساني في القرن العشرين إنّما يتكوّن على ضوء الحوادث العالمية التي لا يستطيع أن يتخلّص من تبعاتها، فمصير أي جماعة إنسانية يتحدّد جزء منه خارج حدودها الجغرافية.

لذلك فإنّ التخطيط العالمي الذي لا تخرج عنه الثقافة الإفريقية يكشف عن نوعين من الناس يختلفان اجتماعيًا، نوع كان أو لا يزال مستعمرًا، ونوع كان ولا يزال مستعمرًا، فجميع المشكلات الكبرى تُردّ نفسيًا وسياسيًا واقتصاديًا إلى هذا النظام الثنائي الذي خلفه لنا القرن التاسع عشر، لذلك فإنّ القرن العشرين يضع قضاياها في مواجهة ما خلفه لنا القرن السابق له من مناقضات (الاستعمار)، إذ وجدت الثقافة الإفريقية نفسها تواجه مهامًا داخل التخطيط العالمي، وقد حصرها مالك بن نبي في ثلاث قضايا هي⁽⁴⁴⁾:

الارتفاع بمستوى الرجل الإفريقي المتحرّر من الاستعمار، أو الذي لا يزال يرسف في أغلاله، إلى مستوى الحضارة، والارتفاع بالرجل المتحضّر الذي لا يزال ضميره ملطخًا بإثم الاستعمار إلى مستوى الإنسانية، وإدخال الشخصية الإفريقية في المسألة الرئيسية للسلام، ذلك لأنّ الأجيال في المجتمع المتحضر - في القرن العشرين - عاشت على رصيد وراثته من الأجيال السابقة، وهو رصيد مبررات حياتها التقليدية الموروثة عن أجدادها، خاصة فترة ما بعد الحربين العالميتين، أحست هذه الأجيال أنّ هذا الرصيد بدأ ينفذ وسيؤول إلى زوال، لذلك سارعت إلى عمليات تعويض في شتى الميادين⁽⁴⁵⁾، أو مسوّغات جديدة لوضعها الجديد⁽⁴⁶⁾، وظهر ذلك التعويض، حتى في ميدان الأدب حيث نرى لونًا جديدًا يظهر تحت اسم (الوجودية) في أوروبا، باعتبارها تمثّل القوى الاستعمارية بمعنى ننطلق منها كمحور أساسي في تحليلنا لنفسية المستعمر والمستعمّر، لذلك نجد بعض أفراد النخبة

الإفريقية - من المثقفين- الذين درسوا في باريس ولندن، أشد وأوثق اتصالا بمنشأ ثقافتهم منه بمنشأ حياتهم، وهذا ينعكس على نفسياتهم وحتى أزيائهم.

وقد حلّل (مالك بن نبي) هذا الوضع تحليلاً نفسياً رائعاً، حيث رأى أنّ هذا المثقف سينظر إلى هذه المشكلة نظرة مزدوجة. انطلاقاً من ثقافته تارة، وانطلاقاً من منشئه أو أصله تارة أخرى، وقد عرض لنا الكاتب مشهداً ثقافياً (سلبياً) يعكس تأثير هذا المثقف ويتجلى بوضوح في موقفه وذلك "حينما نرى مثقفاً يبحث في الأزياء ما يعوّض به عن نقص من نوع آخر، فنراه مثلاً في بعض الحفلات يلبس زي أبيه القديم فكأنه بهذا يعوّض نقصاً يشعر به في اتصاله الروحي بالجماهير الإفريقية، ويوشك هذا المظهر السلبي أن يؤدي بتلك النخبة إلى انفصال ثقافي في وقت هي أحوج ما تكون فيه إلى الاتصال"⁽⁴⁷⁾، لكن مالك بن نبي يهيب بهذه النخبة المثقفة أن تقوم بدورها الحضاري لتجسّد تلك المهام التي حصرها في ثلاث قضايا، وبالتالي فهي أمام حالة عليها معالجتها ودراستها دراسة (مرضية) وأخرى (علاجية) لأنّ (أوربا المريضة) علّمت أبناءها التّظر إلى (الإنسان الإفريقي) أنّه من أبناء المستعمرات وأنّه شيء تافه، لذلك على النخبة الإفريقية مهمتان مترابطتان ونتائجهما الاجتماعية والنفسية متلازمة، الأولى أن تروّض الضمير الأوروبي وتصلحه ليُشعر بوجود الآخرين في العالم الذي سيطرت عليه أوربا، وهذه المهمة تأتي بعد أن تكون قامت بمهمتها الأولى وهي الارتفاع بالجماهير الإفريقية إلى مستوى الحضارة، فكل ما يتحضّر الرجل الإفريقي فإنّه سوف يعطي للأوروبي فكرة أصح عن العالم الإنساني، غير تلك الفكرة التي ورثها عن حقبة الاستعمار. وهنا يسوق مالك بن نبي نسقاً ثقافياً رائعاً عن طفل أوروبي ونشأته في بيته وتعلّمه في مدرسته وتوجّهه إلى عمله جندياً في تلك الجيوش التي تفتح البلدان التي تسمى المستعمرات...فهو ينشأ في جوّ من الأفكار منبتها الاستعمار الذي تكوّن في أوربا وفي أمريكا وفي الاتحاد السوفيتي قبل الثورة، هذا المناخ الاستعماري الذي نشأ فيه هذا الطفل الأوروبي منذ ولادته، أشبع نهمه المعرفي والسلوكي بالأمور الغريبة والقصص النادرة وقصص البطولات في جوّ الاستعمار، والكاتب يشير هنا إلى ذلك الجوّ الاستعماري الذي طبع تلك الشعوب المستعمرة والذي أنشأت عليه أبنائها، حيث إنّك لا تستغرب أن ترى رجلاً منهم، نشأ في هذا الجوّ، فتكوّنت عنده فكرة الاكتشافات الاستعمارية والفتوحات الاستعمارية، فنراه يغادر وطنه وينزل إلى إفريقية الوسطى فيحتل قطاعاً كبيراً منها، هذا القطاع الذي رآه على الخريطة رقعة بيضاء فراودته الفكرة أن يلوّنها بلون ما، ذلك أنّ اللون الأحمر على

الخراط المستعملة في أواخر القرن التاسع عشر كان لتلوين المستعمرات الفرنسية، واللون الأخضر لتلوين المستعمرات الإنجليزية، والبني للمستعمرات البرتغالية، والأصفر للهولندية... فأراد هذا الرجل أن يلوّن قطعة ما من إفريقية بلون يقدم به هذه القطعة لأروبا كهدية مستعمرة، وكان له ما أراد إنه (ستانلي) الذي قدم (الكونغو) إلى تاج بلجيكا، وكأنها ملك أجداده يقدمها إلى ملكة بروكسل. والأمر نفسه نشأ عليه الجندي الأوربي الذي أنشأ في كنف جوّ علمه أنّه يؤدي واجبا وطنيا وعسكريا في بلد من بلدان إفريقيا وآسيا.

حاول مالك بن نبي أن يحلّل نفسية هذا الجيل الذي فتح عينيه في جوّ استعماري وتنشعب بأفكار ترى أرض الغير ملكه والسعي إلى احتلالها واجب مُقدّس. مشيراً إلى بعض الأنساق الثقافية الخفية في هذا الجيل. هذه الأنساق التي تجعله يعيش صراعاً فكرياً. ذلك لأنّه منذ نعومة أظفاره، وقبل دخوله المدرسة يُكفّن آيات البطولة على حساب البرابرة من السود أو الصفر في إفريقيا.⁽⁴⁸⁾

وقد أشار هنا إلى ما رآه بألم عينيه في شنكهاي في الصين حينما وضع هذا المستعمر لافتة على باب الحديقة كتب عليها "لا يدخل هذه الحديقة لا الكلاب ولا الصينيون" وقد تركت الحكومة الصينية هذه اللافتة كما هي بعد خروج الاستعمار منها، حتى تذكر أبنائها في عصر ما بعد الاستعمار ببشاعة الاحتلال ونظراته الدونية للغير، تفصح عن نفسية مريضة حتماً رضع أفكارها نفوس الأطفال والشبان والرجال على حد سواء، ولكن هذه الأفكار كان لها ما يبرّرها - بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية - وهي مسيرة ذلك الطفل التي حللها مالك بن نبي، ولكن بعد أن حطت الحرب أوزارها، تغيّر الأمر بسبب التطوّر الذي حدث في مختلف المجالات لاسيما الاكتشافات العلمية منها، وهي تتصل بروابط خفية أو ظاهرة بين مجالي العلم والنفس، فكّلما تحققت كشوفات علمية جديدة كلّما تركت صداها على المجال النفسي والتطوّر الروحي⁽⁴⁹⁾، حيث بدأت بعض المبرّرات تفقد فاعليتها الروحية والاجتماعية... وغيرها، وتحليله العميق للأنساق المضمرّة والروابط الروحية الخفية، أشار مالك بن نبي إلى أنّ حياة ما أو مجتمع ما حينما يفقد مبرّراته، لا بُدّ أن يقوم بعمليات تعويض، فما نشأ عليه هذا الجيل، جيل البلدان المستعمرة انهار وزال، وفقد أثره في حياته الاجتماعية والفكرية والعسكرية والاقتصادية، وهي ركائز قويّة ودوافع متينة عمّت حياته سنوات طويلة... فراح يبحث له عن مبرّرات أخرى جديدة يملأ بها الفراغ الذي أحدثه زوال القديمة منها، وهذا ما دعا أصحاب المذهب (الوجودي) في الأدب - مثلاً - إلى تحليل القضية من الناحية الأدبية، كما

فعل (كيركجارد) و(هايدجر) و(سارتر) في كل من الدانمارك أو ألمانيا أو فرنسا. حلّل مالك بن نبي هنا القضية من ناحية أخرى، إذ رأى فيها "ردّ فعل أدبي على شعور غامض لفقدان المبرّرات في المجال النفسي"⁽⁵⁰⁾، لذلك لا بُدّ من تعويض في الجوانب الأخرى كالذي حدث في ميدان الأدب، ففي الجانب السياسي راح هذا المستعمر - محاولة منه الرجوع لأصله الأوربي الذي تقلّص دوره - يبحث عن ركائز جديدة لأفكاره ونشاطاته الاقتصادية، فإذا لم يأت التعويض، تحدث الأزمة الخطيرة التي عاشها العالم المتحضّر في القرن العشرين، من تصرّفات في أوروبا وأمريكا، ويعطي مالك بن نبي مثلاً واقعياً نعدّه تطبيقاً نقدياً في ضوء تحليله الثقافي المرتبط بالأنساق الثقافية المضمرة العميقة لسلوك الأفراد والمجتمعات في فترة ما بعد الاستعمار.

فعن أثر هذه الأزمة في بلد مثل (السويد) حقق الضمّانات الاجتماعية إلى أقصى حدّ، إلّا أنّه يتصدّر رأس القائمة في (إحصائية الانتحار العالمية)، وهذا يعني أنّ البطون إذا امتلأت لا تغني النفوس ولا تشبعها؛ كما أعطى صورة أخرى من باريس عن الاستقالة في الحياة، تفيد فيها الإحصائيات في تقرير رسمي صادر عن مجلة تصدرها مصلحة الأمن أنّ نسبة المدمنين بين الشباب للمخدرات تضاعف نسبة عشرين في المئة، تاريخ صدور هذه الإحصائيات... وهذا كلّ بسبب اتساع الهوة بين الواقع الطبيعي الإنساني الذي ورثه وورث مبرّراته التقليدية وواقعه الثقافي.⁽⁵¹⁾

عالج مالك بن نبي في نقده الثقافي - هذه العيّنة من الدراسات الثقافية التي تناولها في كتبه - أثر الاستعمار على الشعوب المستعمرة، ليس ذلك فحسب بل أثره في تنشئة أطفاله وشبابه بسبب ما غرس فيهم من قيم أخلاقية ونفسية واجتماعية لم يجدوا لها مبرّرات بعد زوال هذا الاستعمار، فصوّر لنا نفسية هذا الطفل والشاب في فترة [ما بعد الاستعمار] وانهيّاره أخلاقياً ونفسياً الشيء الذي دفعه إلى سلوكات أثّرت بشكل كبير على القاعدة الاجتماعية، انتهت به إلى الحمازات أو إلى المخدرات أو إلى المقابر عند انتحاره.

10- خاتمة:

هذا التحليل التطبيقي للنقد الثقافي الذي تناوله مالك بن نبي ردّنا فيه إلى نظريته في هذا النقد، التي أسّسها انطلاقاً من فلسفته وعلمه وتجربته العميقة المتصلة بمناحي الحياة، يردّنا هذا التحليل إلى العلاقة المتبادلة في الثقافة بين الجانب النفسي والجانب الاجتماعي، وهي علاقة - كما رأينا في تحليلنا لمفهوم الثقافة عند مالك

بن نبي- ينعكس فيها أسلوب الحياة من ناحية وسلوك الفرد من ناحية أخرى، فالمقاييس الذاتية للفرد الأوربي (المستعمر) هي التي حدّدت (موقفه) إزاء الشعوب (المستعمرة) من احتلال ونهب واستيلاء...، وهي نفسها التي حدّدت (وجوده الأخلاقي) حينما لم يجد تعويضاً لهذه المبررات المفقودة، وقد جاءت هذه الدراسات الثقافية لمالك بن نبي مرتبطة بالظروف التاريخية والاجتماعية في حدود الزّمان والمكان، وهو أمر رأى أنّه لا يمكن الاستغناء عنه في (تشریح) قضية (الثقافة).

الهوامش:

- 1- ينظر: مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط: 21، 1440هـ/ 2019م، مقدمة الطبعة الثانية، ص: 11.
- 2- أصدر مالك بن نبي كتابه (شروط النهضة) سنة 1947 بينما صدر كتابه (مشكلة الثقافة) 1959.
- 3- انظر في دوافع تأليف هذا الكتاب عمر مسقاوي، ص: 7، 8، من مشكلة الثقافة.
- 4- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: 62.
- 5- مالك، م. ن، ص: 16.
- 6- م. ، ، ص: 13.
- 7- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: 14.
- 8- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: 16.
- 9- ينظر: مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: 19.
- *- وقد أشار أنّ الكلمة وردت مرتين أو ثلاثاً في المقدمة (مقدمة بن خلدون) بصورة أدبية بوصفها مفردة لغوية لا في مفهومها الاصطلاحي.
- 10- البقرة: 191.
- 11- ينظر: مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: 25.
- *- ابن مالك يرى أنّ ابن خلدون هو الذي وضع معالم الطريق لهذا العلم، وقد كان التاريخ قبل ظهوره (أحداثاً متتابعة)، فوصله بمبدأ السببية. كما حدّد معنى الواقع الاجتماعي من حيث كونه مصدراً لتلك الأحداث وتطوّرها، ينظر: مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: 27.
- *- في هذا الإطار لدينا كتاب (الثقافة البدائية) لـ (إدوارد تايلور) 1832م- 1917م نشره سنة 1871م، وفيه ما يعدّه التّناد أقدم تعريف للثقافة، أتاح لأوروبا عامة وألمانيا خاصة اكتشاف ثقافات آسيا على يد (شينهور ونيتشه).
- 12- ينظر: مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: 28- 29.
- 13- ينظر: مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: 29.
- 14- ينظر: مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: 30.
- 15- م. ن، ص: 30.

- 16- ينظر: مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: 34.
- 17- ينظر: مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: 31.
- 18- ينظر: مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: 35.
- 19- ينظر: مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: 37.
- 20- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: 38.
- 21- م. ن، ص: 39.
- 22- م. ن، ص: 41.
- 23- مالك، مشكلة الثقافة، ص: 42.
- 24- م. ن، ص: 43.
- 25- م. ن، ص: 45.
- 26- مالك، مشكلة الثقافة، ص: 46.
- 27- مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط: 14، 1438 هـ - 2017م، ص: 147.
- 28- مالك، مشكلة الثقافة، ص: 50.
- 29- م. ن، ص: 56.
- 30- مالك، مشكلة الثقافة، ص: 57.
- 31- م. ن، ص: 61.
- 32- م. ن، ص: 62.
- 33- ينظر: م. ن، ص: 63 وما بعدها.
- 34- ينظر: مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: 64.
- 35- م. ن، ص: 65.
- 36- م. ن، ص: 65.
- 37- ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، دار الوعي، الجزائر، ط: الأولى، 1434 هـ - 2013م، ص: 88.
- 38- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: 67.
- 39- م. ن، ص: 66.
- 40- مالك، مشكلة الثقافة، ص: 77، وشروط النهضة، ص: 88.
- 41- ينظر: مالك، مشكلة الثقافة، ص: 140.
- 42- ينظر: زيوديف ساردار وبورين قان لون، الدراسات الثقافية، تر: وفاء عبد القادر، مراجعة وإشراف وتقديم: إمام عبد الفتاح، ضمن: المشروع القومي للترجمة "أقدم لك"، إشراف: جابر عصفور، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط: الأولى، 2002، ص: 33.
- 43- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: 117.
- 44- ينظر: م. ن، ص: 123.
- 45- ينظر: مالك بن نبي، دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر، دمشق، ط: الثانية، 1439 هـ - 2018م، ص: 11.

46- ينظر: مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص: 124.

47- م. ن، ص: 124.

48- ينظر: مالك بن نبي، دور المسلم ورسالته، ص: 13.

49- ينظر: مالك بن نبي، دور المسلم، ص: 14.

50- مالك بن نبي، م. ن، ص: 11.

51- ينظر: مالك بن نبي، دور المسلم، ص: 14 وما بعدها.

قائمة المراجع

1- زيوديف ساردار وبورين قان لون، الدراسات الثقافية، تر: وفاء عبد القادر، مراجعة وإشراف وتقديم: إمام عبد الفتاح، ضمن: المشروع القومي للترجمة، إشراف: جابر عصفور، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط: الأولى، 2002.

2- مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط: 14، 1438 هـ - 2017 م.

3- مالك بن نبي، دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، دار الفكر، دمشق، ط: الثانية، 1439 هـ - 2018 م.

4- مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، دار الوعي، الجزائر، ط: الأولى، 1434 هـ - 2013 م.

5- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط: 21، 1440 هـ / 2019 م، مقدمة الطبعة الثانية.